كنتيجة لدبلوماسيتها السورية والإيرانية. من شأن اتفاق مع إيران أن يطلق العنان لقوة اقتصادية وسياسية أوروبية آسيوية أخرى. لم تنقلب عقيدة كارتر وحسب، بل إنّ التفكير الأميركي الضمني الأصيل – «للقرن (الأميركي) الجديد» – يوضع ضمنياً في خانة «السرد السخيف». أوراسيا آخذة في الارتقاء (وهي ترتفع على موجة من الموارد الطبيعية والطاقة). تذكروا أنّ زبيغ برزيزينسكي هو الذي كتب في وقتٍ سابق في كتابه « The Grand Chessboard - رقعة الشطرنج الكبرى»، «مذ أن بدأت القارات تتفاعل سياسياً، قبل نحو خمسمئة عام، كانت أوراسيا مركز القوة العالمية». [المقصود بأوراسيا هنا الشرق الأوسط وآسيا الوسطى]... من الضروري ألا يظهر أي منافس أوروبي آسيوي قادر على الهيمنة على أوراسيا، وبالتالي على تحدي أميركا أيضاً: «في هذا السياق، تعتبر كيفية «إدارة» أميركا لأوراسيا بالغة الأهمية. فالقوة التي تهيمن على أوراسيا ستتحكم باثنتين من المناطق الثلاث الأكثر تقدماً وإنتاجية اقتصادية في العالم. كذلك، تشير مجرد نظرة سريعة إلى الخريطة إلى أنّه سيترتب عن السيطرة على أوراسيا بشكل شبه تلقائي خضوع أفريقيا، ما يجعل نصف الكرة الغربي وأوقيانيا (أوستراليا) طرفية من الناحية الجغرافية السياسية للقارة المركزية في العالم. يعيش 75 في المئة تقريباً من سكان العالم في أوراسيا، ومعظم الثروة المادية في العالم موجودة هناك أيضاً، في شركاتها وتحت ترابها. أوراسيا مسؤولة عن نحو ثلاثة أرباع موارد الطاقة المعروفة في العالم». نهاية الاقتباس: حسناً، هذا ما يحدث الآن: ها هي البنيات المُعدّة لاحتواء أوراسيا تتآكل. ينبغي أن يأخذ الأوروبيون علماً جيداً بذلك. عليهم أن ينظروا في سياستهم الخارجية. هل يبقون في علاقتهم التي تميل كفتها نحو الولايات المتحدة بشكل كبير ويصبحون «هامشيين» بالنسبة إلى القارة المركزية في العالم (بكلمات برزيزينسكي)، أم ينبغي لهم أن يتوجهوا مجدداً نحو المركز الجديد للسلطة؟

بطبيعة الحال، سبق واتُّهم أوباما بـ«خسارة» الشرق الأوسط لمصلحة طهران وموسكو. لكن انسحاب بريطانيا من الهند وباكستان تخللته هتافات مماثلة بـ«الخيانة» وتحذيرات خطيرة «من الندم الكبير الذي سيشعر به الشعب الهندي لرحيل البريطانيين. لكن كم تبدو جلية الآن خسارة بريطانيا للإرادة، وحاجتها إلى أن تكون موجودة. اليوم، الغرب ككل وليس أميركا أو بريطانيا وحسب، هو الذي يمرّ بمرحلة جديدة من التأمل الباطني، فيما تتآكل فئات الأفكار، ويتحرك النظام العالمي في اتجاهات جديدة. الحقيقة الباردة هي التي قالها أوباما لنتنياهو وأعضاء مجلس الشيوخ: المثالية – «المعيار المطلق» غير متوافر – «هو غير قابل للتحقيق».

أوباما محقّ في أنّ التخفيف من التوتر الطائفي قد يكون المفتاح لإيجاد توازن جغرافي سياسي جديد (أ ف ب)

تكمن الصعوبة هنا في أنّ «رواية» السعي وراء «المثالية» متجذرة عميقاً في النفسية الأميركية – ثم تطعّمت بها النفسية الأوروبية (ومجموعات التفكير الغربية) أيضاً. قبل أكثر من عامين على الهجوم الياباني على بيرل هاربر، أطلقت بعض الشخصيات في المجلس الأميركي للعلاقات الخارجية مشروعاً سرياً بات يعرف باسم «دراسات الحرب والسلام»، بدعم مالي من وزارة الخارجية. حتى في ذلك الحين، توقعوا أنّ نتائج الحرب المتوقعة في أوروبا ستترك أميركا في مركز مهيمن، اقتصادياً وسياسياً. كذلك حذروا من أن تكرر أميركا الخطأ الذي اقترفه البريطانيون، من خلال الجهر بـ«إمبراطورية» أميركية (على الرغم من أنّ هذا هو ما كانوا يدعون إليه فعلياً). بدلاً من الإمبريالية، ينبغي أن تتبنى أميركا رواية «مثل عليا». لا ينبغي أن ترتكز «إمبراطوريتها» على القوة العسكرية وحسب، بل أيضاً على «حكاية» التقدم والديموقراطية والحرية. كانت المهمة – باعتقاد واضعي السياسات، تتمثل في كيفية استعمال قوة أميركا العسكرية والاقتصادية والسياسية لتشكيل بيئة دولية مواتية لمصالحها – مغلفة في حكاية التقدم والديموقراطية والحرية: باختصار، سياسة خارجية متبعة دفاعاً عن المدينة الفاضلة.

لكن كما أشار أحد الفلاسفة منذ أكثر من ألفي سنة، في نهاية المطاف يصبح «بطل» الفضيلة ومنفذ مهمة حضارية أمير غموضه الخاص. لماذا؟ لأنّه كما كان الباحثون في المجلس الأميركي للعلاقات الخارجية يدعون، حددت أميركا لنفسها هدفاً يتمثل في التمكن من «فعل الخير» باعتباره شيئاً مادياً. ما إن توصلت أميركا إلى رؤية «الخير» باعتباره «شيئاً» يمكن بلوغه، باتت طرفاً في انقسام لا مفر منه: بين الحاضر الذي لم تتمكن أميركا خلاله من امتلاك وتحقيق ما تصبو إليه؛ والمستقبل حيث يعتقد الأميركيون أنهم سيحصلون على مرادهم – مستقبل جعلوه حاضراً من خلال الجهود التي بذلوها في سبيل القضاء على الشر. منذ اللحظة التي اعتبر فيها «المثاليون» قيمهم أشياء يمكن بلوغها، أفضت هذه القيم إلى الضلال والغربة: بما أنه كلما صبّ المرء اهتمامه على وسائل تحقيق «التقدم والديموقراطية والحرية»، وكلما أصبح مجرداً، يعامَل على أنّه شيء يمكن بلوغه من خلال تقنيات عسكرية خاصة (القوات الخاصة، طائرات بلا طيار، وما إلى ذلك – تذكروا سامانثا باور، التي أطلقت على نفسها سابقاً لقب «فتاة الإبادة الجماعية»، «التي تروّج للديموقراطية في أي وقتٍ وأينما كان... تحت تهديد صاروخ كروز إذا لزم الأمر»)، أصبح أقل «واقعية». وفيما يصبح أقل واقعية، يتراجع أكثر في غياهب التجرّد والمستقبل والعجز عن تحقيق المآرب. باختصار، كلما صبّ المرء تركيزه أكثر على وسائل تحقيق مهمته، أصبحت هذه الوسائل أكثر دقّة وتعقيداً، إلى أن يصبح في النهاية مجرد التركيز على رسم العالم وتشكيله أمراً شديد التطلب لدرجة أنه ينبغي تركيز كافة الجهود على ذلك – وتفقد الغاية معناها الحقيقي. تتمثل خلاصة هذا التفكير الاستباقي بأنّ «الخير» الذي يبشّر به الفلاسفة الأخلاقيون والمثاليون ويطالبون به، قد يتحوّل في النهاية، وبشكل متناقض إلى شر. من خلال أقوال دايفيد ريمنيك يبدو أنّ الرئيس أوباما يدرك ذلك بشكلٍ بديهي، وهو يسعى إلى توجيه أميركا بعيداً عن متابعة مهمة حضارية، لمصلحة هدف محدود أكثر يتمثل في إقامة «مساحة» للتيارات الإيجابية لكي تنمو بطريقتها الخاصة. قد لا يسامحه أبداً المثاليون – من يدعون إلى التدخل الإنساني – (وطبعاً المحافظون الجدد) – سيستخلصون أنّه يفسح بالمجال أمام الشر الذي يعتقدون أنّه يقف في طريق امتلاك شيء (إنجاز مهمة)، لا يملكه المرء، وعليه أن يلاحقه باستمرار إلى أن يصبح في الواقع بعيد المنال.

(ترجمة باسكال شلهوب الخوري)

* مدير «منتدى النزاعات»

الحقة، وبعيدون كل البعد عن الصدقية. تزخر شاشات التلفزة كما أغلب وسائل الإعلام (المرئية/ المكتوبة/ المسموعة) بهذه الأنواع، ومن المفهوم بالطبع لِمَ هم موجودون، البعض منهم لأنه «بوق» فحسب، البعض الآخر «لأنه لا مكان آخر له»، أما البعض الآخر فهو موجود لأنه ليس هناك غيره (سواء من حيث الاتجاه أو الانتماء!). مثلاً ما هي قيمة خديجة بنت قنة الإعلامية مثلاً؟ أو فيصل القاسم؟ أو شريف شحادة؟ ما هي القيمة الحقيقية لهؤلاء كي تستضيفهم الفضائيات بشكل شبه يومي، أو كي تنتشر كلماتهم على مواقع التواصل الاجتماعي باعتبارها ذات قيمة؟ هل دقق أحدٌ في ما يقولونه مثلاً؟ أو عرف فعلاً مدى صحة «معلوماتهم» و«تحليلاتهم»؟ الشعار هنا: ما دمت على الشاشة فأنت «تفهم»!

ـ مسلسلات/ أفلام لا تحكي ولا تحاكي الواقع أبداً. من خلال انتشار المسلسلات «التركية» السطحية والسخيفة إلى درجة الموت السريري. فمسلسلٌ يحتاج مشهدٌ واحد فيه إلى ربع حلقة (قرابة عشر دقائق) يؤكد أن البنية العقلية التي يراد للعربي أن يمتلكها هي «هذه السرعة»، في حين أن معدّل سرعة المشاهد في أي مسلسل «أميركي» مشابه هو «السبعة أضعاف إلى عشرة». هل هذا أمرٌ غير مقصود برأيكم؟ قارنوا مثلاً مسلسل وادي الذئاب – التركي الشديد الشهرة – مع مسلسل أميركي مشابه هو «لعبة العروش» (Game of Thrones) كي تفهموا ما أتحدث عنه. الأمر مقصود وبشدة.

ـ السيطرة شبه التامة على عالم الثقافة/ الروايات/ الكتب/ القصص. فمن خلال مجموعة محدد بدقة من «الكتّاب» الذين لا يسمح لغيرهم بالولوج إلى عالمهم (راقبوا معي مثلاً كتّاب الصحف والجرائد المحلية والعربية، فهم لم يجرِ تغييرهم منذ عشرات السنين، أليس في الأمرِ ما يستحق التساؤل؟ في حين أن دماء شابة تدخل بشكلٍ شهري إلى الصحف الغربية/ العالمية).

ـ عبادة المشاهير. وهو أمرٌ يحدث، حتى ولو تعللنا باختلاف الأمر عن الغرب. بالتأكيد في بلادنا يختلف، وهو يأخذ أشكالاً متعددة. حيث لا يوجد من تلتجئ إليه سوى هؤلاء! فبحكم أن المجتمع لا يمتلك أي شخصيات «قاعدية» «قيادية» حقيقية، يلجأ الناس لتأليه هؤلاء، فمن مجنونات ومجانين الفنانين، إلى متابعي برامج المشعوذين/ الحظ/ الأبراج/ التبصير/ المنجمين، الذي ينال بعضهم أرقاماً بستة أو سبعة أصفار لمجرد الظهور التلفازي الواحد (ميشال حايك مثلاً). هي فكرة أن خلاصك لا يكون إلا «بالوهم»/ بالغيبيات، بأشياء لا يمكن السيطرة عليها، وبالتالي لا يمكن تغييرها بالجهد/ العمل أبداً.

ـ تدمير منظومات القيم الأساسية. السارق لا يحسب سارقاً إلّا إذا ألقي القبض عليه. من يسرق من الدولة هو «عظيم» و«حربوق» و«ذكي»، لكن إذا ما قبض عليه كان «غبياً» لأنه لم يعرف كيفية تغطية الأمر. واللافت أنّ الشعب لا ينظر إليه على أنه «مجرم»، بل بالعكس قد يتحول بعضهم أبطالاً لأنهم مدعومون سياسياً أو من جهات اجتماعية/ دينية/ طائفية معينة.

ـ تدمير منظومات القيم الشخصية. أنت لا تحتاج إلى الجهد والجد في عملك، أنت بحاجة «لواسطة». أنت لست بحاجة لأن تكون «صادقاً» أو «مخلصاً»، يجب أن تكون «مطيعاً» و«شخصيتك ممسوحة» أمام القائد/ صاحب المنصب والنفوذ. كل هذا يدفع المواطن العادي إلى اللجوء للطرق الأسهل والأكثر نجاعة في النجاح الشخصي: الواسطة، الكذب، المداهنة والممالأة! هي أمورٌ تحتاجُ إلى كثير من التفكّر والرؤية والإدراك، والمشكلة الأكبر فيها إذا ما جرى تجاهلها والتعامل معها على أساس أنه لا يمكن الفرد الواحد القيام بشيءٍ ضدها، وهو ما يتقصده الغرب أصلاً: أن يجعلك تشعر بالعجز، بالضعف، بقلة الحيلة، وأن ما عليك هو تمثيل دور «الشاة» المعدة للذبح، أن تستهلك وتستهلك، أن تكون فقط آلة معدة للدفع، أن تكون شخصاً همه الوحيد أن يكون «عايش لراسي» (كما بالعامية)، لا يعنيه شيء، لا تهمه أمته وشعبه وأناسه بأي شيء. ساعتها نكون أسوأ أمةٍ أخرجت للناس، نأمر بالمنكر وننهى عن المعروف، ونخالف شرع الله وكلامه فينا، ونصبح بحق – ما يتمناه الغربيون منا – خرافاً تنتظر أكلها.

* كاتب فلسطيني

> «أنت لا تحتاج للتفكير أبعد من أنفك» هو عنوان حياتنا كعرب منذ أكثر مئة عام

المراجع:

1. الإعلام ليس تواصلاً، دومينيك وولتون، دار الفارابي، 2012.
2ـ البيئة الإعلامية الجديدة، أندريا بريس وبروس ويليمز، ترجمة: شويكار زكي، دار الفجر للنشر والتوزيع، 2012.
3. تفتيت الشرق الأوسط، د. جيرمي سولت، ترجمة: د. نبيل صبحي الطويل. 2008.
4. الخطاب العربي المعاصر: دراسة تحليلية نقدية، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، 1994.
5. قضايا في الفكر المعاصر، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، 1997.
6ـ الدول المارقة، نعوم تشومسكي، ترجمة: أسامة إسبر. مكتبة العبيكان، 2004.
7. اختلال العالم: حضارتنا المتهافتة، أمين معلوف، دار الفارابي، 2009.
8. السلطة والسلطة المضادة في عصر العولمة، أولريش بيك، ترجمة: د. جورج كتورة، و د. إلهام الشعراني. المكتبة الشرقية، 2010.
9. الميديا: مجموعة مقالات، فرانسيس بال، ترجمة: د. فؤاد شاهين. دار الكتاب الجديد المتحدة. 2004.
10ـ تشريح الثورة، كرين برنتين، ترجمة: سمير عبد الرحيم الجلبي، دار الفارابي، 2009.
11ـ خيانة المثقفين، إدوارد سعيد، ترجمة: أسعد الحسين، دار نينوى، 2011.